لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يَغلب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء فى إيجاز مُبسَّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء]

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة فى القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التاريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص فى القرآن التقاط مواضع العِبْرة والعظَة واتخاذ الأُسْوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل فى رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

يجد أن موسى جاء ليعالج مسألةً هى قمة العقيدة ، ويواجه مَن ادَّعى الألوهية وقال : إنى إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيَّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

لذلك كانت قصة موسى أَوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. (٦٩)﴾ [الشعراء] أى : اقرأ ، أو وضِّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿عَلَيْهِمْ .. (٦٩)﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أَمْ على المكذبين خاصة ؟

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُليَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله فى دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أَمِنُوا فى طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)﴾ [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة

على الجزيرة العربية ، وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

ومعنى ﴿ نَبَأَ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : الخبر الهام الذى يجب أنْ يُقال ، ويجب أنْ يُنصتَ له ، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعظة ، فلا يُقال (نبأ) للخبر العادى الذى لا يُؤبَهُ له .

ولو تتبعتَ كلمة (نبأ) فى القرآن لوجدتها لا تُقَال إلا للأمر الهام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ]

وقوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

إذن : ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الشعراء] يعنى : الخبر الهام عنه ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذى مدحه ربه مدحاً عظيماً فى مواضع عدة من القرآن ، فقال الحق سبحانه عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

والأمة لا تُطلَق إلا على جماعة تنتسب إلى شىء خاص ، ويجمعهم مكان وزمان وحال . كذلك رسول الله ﷺ ، فقد أضفى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « الخير فِىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) القنوت : الطاعة . وقال تعالى ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) ﴾ [الروم] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] .

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

الخير فىَّ حصراً ، الخير على عمومه ، وفى كل جوانب شخصيته : داعيةً وأباً وزوجاً .. الخ وخصال الخير من شجاعة ، وحلْم ، وعلْم ، وكرم .. إلخ . وكذلك الخير فى أمتى منثورٌ بين أفرادها ، يأخذ كل منهم من الخير بطرف ، وله منه نصيب ، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمدى أبداً ، ولا أن يتصف به .

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ؛ لأن خصال الخير تُوزَّع على أفراد الأمة : هذا ذكى ، وهذا حليم ، وهذا عالم ، وهذا حكيم .. الخ أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد جمع من الخير ما فى أمة بأكملها ، وهذا ليس كلاماً يُقَال فى مدح نبى الله إبراهيم ، إنما من واقع حياته العملية .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

وحَسْب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الخير هذه الدعوة : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩)﴾ [البقرة]

فكان محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)﴾

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقرب الناس إليه لا للغريب ، والدعوة التى توجه أولاً للقريب لا بُدَّ أنها دعوة حَقٍّ ودعوة خير ؛ لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت فى خيريتها شكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه .

والمراد بأبيه هو (آزر) الذى ورد ذكره فى موضع آخر .

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ؛ لأن العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى ، فالذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم ؟

إذن : فهى آلهة دون منهج ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذى لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ، وكذلك هى آلهة دون جزاء ودون حساب ؛ لأنها لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

إذن : فكلمة عبادة هنا خطأ ، ومع ذلك يُسمِّيها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بُدَّ أن تُنفَّذ ، وإنْ كانت شاقة على النفس ، وله نواه لا بُدَّ أن تترك وإنْ كانت النفس تشتهيها ، فهى عبادة شاقة ، أمّا عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أمْر ولا نَهْى ، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة ؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسمَّوْها آلهة ، وهذا خبل واضح .

كما أن الإنسان فى مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له رباً يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول : يا رب . فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهَبْ أنه يدعو إنساناً مثله يمكن أنْ يسمعهَ أيستجيبُ له ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء]

إذن : فعبادة غير الله حُمْق وغباء .

لكن هذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجدل مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟ قالوا : إن إبراهيم - عليه السلام - كان ناضجاً مُتفتِّحاً منذ صغَره ، وكان مُنكراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل ، لذلك قال الله عنه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء]

وكذلك كان نبينا محمد ﷺ قبل بعثته كارهاً للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة وقد كُسر ذراعه فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله ﷺ وتعجَّب لما يرى : العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، ولجأ إلى الغار يفكر في الإله الحق والمعبود الحق .

فكأن أيَّ دين يأمر الله به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ؛ لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فإنْ توفَّرت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق .

بدليل ما كان يحدث من عمر - رضي الله عنه - وكان يُحدث رسول الله بالأمر ، فتتنزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقتْ الآيات رأيه في أكثر من موقف[1] ، وقد أقرَّ رسول الله ﷺ ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يمكن أنْ ينتهيا إلى قضايا الدين دون رسول .

---

(١) من هذه المواقف أنه لما كان يوم بدر قال ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذَّبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . فأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر بالفداء ، ولكن نزل قول الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) ﴾ [الأنفال] . انظر تفسير ابن كثير (٢/٣٢٥) .

وتستطيع أنت أنْ تعـرض أىَّ قضية من قضـايا الدين على العقل السليم ، وسوف تجد أنها طيبـة وجميلة توافق الذَّوْق السليم والتفكير السوىّ ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ؛ لأنك بهـا تأخـذ ما ليس لـك ، وقد يُسلَّط عـليك رَاشٍ ، فيـأخـذ منك حقك ، كما أخذتَ أنت حقوق الناس .

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوجد أن الدين قيَّد نظرك وأنت فـرد ، وقيَّد من أجلك نظر الناس جميـعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر فى تحريم السرقة والقتل .. إلخ .

وقـد سُئـلْنا فى إحدى الـرحلات عن قـوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

يقولون : وبعد أربعـة عشر قرناً ، والمسـلمون فى الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف ـ إذن ـ نفهم هذه الآية ؟

فقلتُ للسائل : لو فهمـتَ الآية السابقة لعرفتَ الجواب : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

فالمـعنى : أن الدين سيـظهر فى وجود الأديان الأخـرى ، وليس المـراد أن هذه الأديـان سـتـزول ، ولن يكون لهـا وجـود ، بل هى موجـودة ، لكن يظهر عليها الإسـلام ظهور حجـة ، بدليل ما نراه من هجمـات على الإسلام وأحكامـه وتشريعاته ، كـما فى مـسألة الطلاق مثـلاً ، أو مسألة تعدُّد الـزوجات وغيرها . وبعـد ذلك تُلجئهم الحـياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم .

ولما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ أول ما شرَّعوا منعوا الربا الذى كان جائزاً عندهم ، لقد منعوا الربا مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم فى ذلك ، فهذه وأمثالها غلبة لدين الله وظهور له على كل الأديان .

وليس معنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه .. (٣٣) ﴾ [التوبة] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كُلٌّ على دينه وعلى شركه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا فى الإسلام ، وهذا أوقع فى ظهور الدين .

ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم فى ردِّهم على إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾

إذن : شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا .. (٧١) ﴾ [الشعراء] والعبادة طاعة ، فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا أمرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾ [الشعراء] أى : قائمين على عبادته ليلَ نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة وبلا التزام ، إنما بلطجة تأخذون فيها حظَّ أنفسكم ، وتفعلون معها ما تريدون .

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم ردَّ عليهم ؟

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢)
أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾

فالأصنام لا تسمع مَنْ توجّه إليها بالدعاء ، ولا تنفع مَنْ عبدها ، ولا تضر مَنْ كفر بها ؛ لذلك لم يجدوا رداً ، وحاروا جواباً ، ولم يجدوا حُجّة إلا أنْ قالوا :

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

إذن : أنتم لم تُحكِّموا عقولكم في هذه المسألة ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]

ونقول لهم : ومتى ظللتم على تقليد آبائكم فيما يفعلون ؟ إنكم لو أقمتُم على تقليد الآباء ما ارتقيتم في حياتكم أبداً ، فلماذا إذن تحرصون على التقليد في هذه المسألة بالذات دون غيرها .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول إبراهيم عليه السلام : لا تلقوا بالمسألة على الآباء ، ولا تُعلِّقوا عليهم أخطاءكم ، ثم يعلنها صريحة متحدية كأنه يقول لهم : الحمرة في خيلكم اركبوها .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع ﴿ فَإِنَّهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] ومع ذلك لم يقل : أعداء لي . قالوا : لأن العداوة في أمر الدين واحدة على خلاف العداوة في أمر الدنيا ؛ لأنها متعددة الأسباب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران]

فجاءت : ﴿ أَعْدَاءً .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] هنا جمع ؛ لأنها تعود على

عداوة الدنيا ، وهى متعددة الأسباب ، أمَّا العداوة فى الدين فواحدة على قلب رجل واحد .

ومن ذلك ما قلناه فى سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

كلها بصيغة الجمع إلا فى ﴿ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] جاءت بصيغة المفرد ؛ لأن الصداقة الحقة هى ما كانت لله غير متعددة الأغراض ، فهى إذن لا تتعدد .

وفى إعلان إبراهيم لعداوته لهذه الأصنام تحدٍّ لهم : فها أنا ذا أعلن عداوتى لهم ، فإنْ كانوا يقدرون على مضرّتى فليفعلوا . وبعد أن أعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ عداوته للأصنام نجحت دعوته ، وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصبْه شىء .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لهم : يا أغبياء ، اعلموا أن للعبادة أسباباً وحيثيات . ويوضح إبراهيم عليه السلام حيثيات عبادة ربه ـ عزَّ وجل ـ فيقول : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء] أى : خلقنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدْم ، وجعل لى قانون صيانة يحفظ حياتى ، ويضمن سلامتى حين كلَّفنى بشرعه : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهو سبحانه لا ينتفع بشىء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن ، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا ؟ إذن : فهو وحده المستحق للعبادة .

وقوله سبحانه ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] أى : بقانون الصيانة الذى يشبه (الكتالوج) الذى يجعله البشر لصناعاتهم ؛ ليضمنوا سلامتها وأداءها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدِّد لها المهمة قبل أنْ يَشرَع فى صناعتها ، وهل رأينا آلةً صنعها صاحبها ، ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تستخدم هذه ، (بوتاجاز) أو ثلاجة مثلاً ؟

فإذا ما حدث خلل فى هذه الآلة ، فعليك بالنظر فى هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ؛ لذلك إذا أردتَ أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وخالقك - عز وجل - ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لخلْقة الله قانون صيانتها ، فهذا مثْل : أن تقول للجزار مثلاً : اعمل لى قانون صيانة (التليفزيون) .

ثم يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة ، فيقول : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء]

ونقف هنا عند الضمير المنفصل (هو) الذى جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتى ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإنكار ، وقد أكّد الحق - تبارك وتعالى - نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء إليه تعالى ؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يظن البعض أن الطبيب هو الشافى أو أن الأب مثلاً هو الرازق ؛ لأنه الجالب له والمناول .

والهداية قد يدّعيها واضعو القوانين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدّعى أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ؛ لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] فالهداية لا تكون إلا من الله ، وفى شرْعته تعالى .

وقد تسأل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء] ولماذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول : الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أمّا الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطى المريض حقنة ويكون فيها حَتْفه .

وحين نُعرب : ﴿ مَرِضْتُ .. (٨٠) ﴾ [الشعراء] نقول : مرض فعل ماضٍ والتاء فاعل ، فهل أنا الذى فعلتُ المرض ؟ وهذا مثْل أن تقول : مات فلان ، ففلان فاعل مع أنه لم يحدث الموت ؛ لذلك يجب أن نتنبه إلى أن الفاعل يعنى مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿ مَرِضْتُ .. (٨٠) ﴾ [الشعراء] تأدباً مع الله تعالى ، فلم يقل : أمرضنى ونسب المرض الظاهر إلى نفسه .

أما فى المسائل التى لا يدَّعيها أحد ، فتأتى بالفعل دون توكيد ، كما فى الآية بعدها :

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾

فلم يقُلْ هنا : هو يميتنى أو هو يُحيينى ؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدَّعيها أحد ، فإنْ قُلْتَ : وماذا عن قتْل الإنسان لغيره ألاَ يُعَدُّ موتاً ؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

فالموت أن تخرج الروح ، والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء ، وبعد خروج الروح تُنقض البنية ، أما القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتب عليه خروج الروح .

إذن : الموت لم يدَّعه أحدٌ لنفسه ، ولما ادعاه النمرود جادله إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ذلك ، وكشف زيف هذا الادعاء ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

ولم يفعل إلا أنْ جاء برجل فأمر بقتله ، ثم عفا عنه ؛ لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أنْ يقطع عليه هذا الطريق ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند .

وتأمل حرف العطف ﴿ يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] و(ثم) تفيد العطف مع التراخي ، ولم يقل : ويحيين ؛ لأن الواو تفيد مُطلَق العطف ، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي (١) يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبياء الذي وصفه ربه بأنه أمة قانتاً لله ، ولم يكن من المشركين ، إبراهيم الذي ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، ومع هذا كله

---

(١) قرأ الحسن وابن أبي إسحاق « خطاياي » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال مجاهد : يعني بخطيئته قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] ، وقوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب ﴿ هَٰذَا رَبِّي .. (٧٧) ﴾ [الأنعام] وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ، نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . [تفسير القرطبي ٧/ ٤٩٩١] .

يقول : ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

إنه أدب عَالٍ مع الله وهضم لعمله ؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دونَ ما يستحق الله تعالى من العبادة ؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

ويجب أن ننظر هنا : متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه ؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية ، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدَّه من عُدْم ، ووفَّر له كل مقومات الحياة .

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضى على كبرياء نفسه ، ويُصفِّى روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء ، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ؟ وبأىٍّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إذن : لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية ؛ لذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] يقول لك ربك : أنت مأمون على ما علمتَ ، عامل به ، فخُذ المزيد من هدايتى ونورى وتوفيقى ، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيمانى وصفاء روحى ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء .

فإبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء لم يجترىء على الدعاء

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠/١٥) من حديث أنس رضى الله عنه ، ضعَّفه الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) .

بشيء آت إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ⦗٧⦘ ﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد في الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح في الحديث القدسي : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ في رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أُحضر لك من البلد الفلاني ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيّق على نفسه، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ⦗٨٣⦘ ﴾

نلحظ أنه لم يدْعُ بشيء من الدنيا ، ومعنى ﴿ حُكْمًا .. ⦗٨٣⦘ ﴾ [الشعراء] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشيء في موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري وقال : هذا حديث حسن غريب ، وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦) ، وكذا الدارمي في سننه (٢/٤٤١) بلفظ « من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال ابن حجر في فتح الباري (٩/٦٦) : « رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف » . وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله هذا الحديث مفصلاً في كتاب « الأحاديث القدسية » (١/٤٩١ - ٥١٤) .

وقال فى دعائه : ﴿هَبْ لِى .. (٨٣)﴾ [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لى هبةً من عندك ﴿وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء] أى : ألحقنى بهم فى العمل والأُسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقنى بهم فى الجزاء ، إنما فى العمل .

وقد أجابه الله تعالى فى هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥)﴾ [الأنعام]

والملكوت : المخلوقات غير المحسّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة] فأجابه فى الدعوة الأخرى .

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ (٨٤)﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ .. (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثنى عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى فى الأمهات الخمس فى القرآن الكريم ، فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ .. (٨٠)﴾ [الإسراء]

يعنى : أدخلنى بصدق - لا بغشٍّ يعنى - مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجنى مُخرج صدق .

وفى قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الاحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق[1] .

ومعنى : ﴿فِي الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : يتعدى الذِّكْر الحسن مدة حياتى إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وفيمن يأتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكَر من بعدى ؛ لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَن اقتدى بى ، وجعلنى أُسْوة .

وقد أجابه الله فى هذه ، فقال سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات]

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾

بعد أن دعا لأمر فى الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم فى الآخرة ، ولا شك أن ربه - عز وجل - قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت فى القرآن عشر مرات :
١ - لسان صدق : مرتان (مريم : ٥٠) ، (الشعراء : ٨٤) .
٢ - مدخل صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠) .
٣ - مخرج صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠)
٤ - وعد الصدق : مرة واحدة (الأحقاف : ١٦) .
٥ - مقعد صدق : مرة واحدة (القمر : ٥٥) .
وبالإضافة إلى هذا :
- قدم صدق : مرة واحدة (يونس : ٢) .
- مبوأ صدق : مرة واحدة (يونس : ٩٣) .
- الصدق : مرتان (الزمر : ٣٢) ، (الزمر : ٣٣) والله تعالى أعلى وأعلم .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

والميراث أنْ تأخذ ملكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق - عز وجل - لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعنى أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا فى الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردّ المظالم إلى أهلها .

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتى الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْى .

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ فى الحديث النبوى : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

---

(١) تغمّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذى قدمتـه ؛ لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عـليك فى الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسـعد بها ، وما دام التكليف فى صالحك ، فكيف تأخذ أجـراً عليه ؟ كـالوالد حين يحثّ ولـده على المذاكرة والـجد فى دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك ـ عز وجل ـ يـقول لك : ما دُمْتَ قد احتـرمتَ تكليفى لك ، وأطعـتنى فيـما ينفـعك أنت ، ولا يعـود علىَّ منه شىء ، فحـين أعطيك الجنة أعطيك بفـضلى وهبَة منى ، أو أننا نأخذ الـجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غنَى لأحد منّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغى ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجـتهادك فى العـبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحـمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال :

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) ﴾

لم ينْسَ إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فى دعائه أن يـدعو لمن رباه ؛ لأن الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ هو الخـالق ، إنمـا جـعل الوالدين همـا السبب المـباشر فى الخَلْـق والإيجاد ؛ لذلك جعلهـما أصحـاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قـد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غـيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثـة ، فعندنا ربوبية خَلَقَت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربَّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربّيانى صغيراً ، إذن : لو ربّانى غير والدىَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا منى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام فى هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُخْزِنِي [1] يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾

بأىِّ شىء يكون الخزى فى الآخرة ؟ الخزى يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام فى هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) ﴾ [البقرة]

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

(١) أخرج البخارى فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأىُّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٧) .